

باب

فى ذكر بعض ما ورد فى مدح النساء، والأمر بالرفق بهن والاعتناء

لم يذكر الله تعالى نساء الدنيا بصفة مدح لهن بجمالهن وحسن صورتهم، بل ذكرهن بما أرفع وأعلى من ذلك وهو الصلاح والعفة والأمانة وغير ذلك من الصفات الشريفة التى هى المطلوبة من المرأة فقال تعالى (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) وإنما ذكر نساء الجنة بأوصاف خلقية لأنها دار تشريف لا دار تكليف، وليكون ما وصفهن به وسيلة لاقتداء نساء الدنيا بهن مما يمكن الاقتداء به فقال تعالى (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عرباً أتراباً) أى أن الله سبحانه وتعالى أوجدهن مرة واحدة من غير ولادة ما آباء وأمهات وجعلهن أبكارا دائماً كلما دنا منهن أزواجهن وجدوهن أبكارا من غير أن يجدن ألم البكارة عند التماس لأن الجنة منزلة عن الآلام والأقذار وقوله تعالى عرباً أى متحبات لأزواجهن وأتراباً أى بسن واحدة لا تفاوت بينهن. وفى هذه الآية دليل على أن المطلوب من الزوجة أن تكون بكرًا وأن تكون متحبة لزوجها متناسبة فى السن معه وفى هذا حصول الألفة ودوام العشرة وقال تعالى (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) أى إن نساء أهل الجنة لا يتطلعن لغير أزواجهن بل هن مقتصرات عليهم لا يردن بهم بديلاً. وهكذا ينبغى أن تكون المرأة فى الدنيا لا تطمح نفسها لغير زوجها كيفما كان وقال تعالى (حور مقصورات فى الخيام لم يطمسهن إنس قبلهم ولا جان) وصف الله تعالى نساء الجنة بملازمتهم لمساكنهن لا يخرجن منها وإنهن لهن قبل أزواجهن غيرهم، وفيه الإشارة إلى لزوم النساء بيوتهن وإلا كتفل بأزواجهن لا أن يخرجن من بيوتهن تابعات لأهوائهن، ولا أن يرغبن عن أزواجهن لغيرهن بأن يخاصمنهم حتى يحملنهم

على تطليقهن ليتزوجن بغيرهم، فالمرأة ليست كفسوطة الحمام تنقل من وسط مغتسل إلى وسط آخر، ولذلك كان بين البكر والثيب فرق في المعاملة في ابتداء الزواج بحكم الشرع، وهذا الفرق ناشئ عن التفاوت بين البكر والثيب. فعلى المرأة أن تحرص على أن تكون زجة لزوج واحد لا لأكثر فهو أكمل لها وأجمل بها وقال تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) أى إن أزواج أهل الجنة ليس فيهن ما يؤلف منهن من حيض واستحاضة ونفاس ومرض رحم وبتن عرق وقذر بدن ووساخة ثوب أو مكان وغير ذلك، بل هن طاهرات نظيفات وفيه الإشارة إلى أنه يلزم النساء أن يكن كذلك فلا تتأخر الحائض عن التطهر عند ما ينقطع حيضها، وذلك عند نفاسها، وفي جميع الأحوال التي تقتضى فيها النظافة وكل هذا ممكن لهن والذى ذكره الله تعالى عن النساء فى القرآن إنما هو أمر لهن ونهى وإخبار عما سلف من أحوال النساء الحسنة والسيئة ليعتبرن ويتصحن، لأن المطلوب من المرأة الدين والأخلاق الحسنة وحسن الإدارة والإطاعة للزوج وحسن القيام على رؤية أمور المنزل وغير ذلك من الواجب عليها، وأما الجمال والمال والحسب والأصالة فهى فى الدرجة الثانية بعد الدين، فإذا اجتمعت لها هذه الأربعة مع الدين كانت نوراً على نور كما قال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعاً وأقبح الكفر والأفلاس بالناس

وأما ما ورد من الأحاديث الشريفة فى مدح النساء والأمر بالرفق بهن والعناية بشأنهن فمنها حديث: "حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة" - رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أنس بن مالك - وحديث: "كلما ازداد المرء إيماناً ازداد حباً فى النساء" وحديث: "ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم" - رواه ابن عساکر

عن على بن أبى طالب - وحديث: "إنما النساء شقائق الرجال" - رواه الإمام أحمد بن حنبل وأبو داود والترمذى عن عائشة والبخاري عن أنس - وحديث: "الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" - رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص - وحديث: "هن أغلب" - رواه الطبراني عن أم سلمة - وحديث: "أمركن ممن يهمنى بعدى وليس عليكم إلا الصابرون" - رواه الحاكم عن عائشة - وحديث: "الحياء عشرة أجزاء فتسعة فى النساء وواحد فى الرجال ولولا ذلك ما قوى الرجال على النساء" - رواه الديلمى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما - وحديث: "النساء خلقن من ضعف وعورة فاستروا عوراتهن بالبيوت وعلنوا على ضعفهن بالسكوت" وحديث: "حاملات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين لأزواجهن دخل مصلياتهن الجنة" - رواه الإمام أحمد وابن ماجه والطبراني والحاكم عن أبى أمامة - وحديث: "آمروا النساء فى بناتهن" - رواه أبو داود والبيهقى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما - وحديث: "اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة" - رواه ابن عساکر عن عبد الله بن عمر - وحديث: "احملوا النساء على أهوائهن" - رواه ابن عدى عن عبد الله بن عمر - وحديث: "إنى أخرج عليكم حق الضعيفين المرأة واليتيم" - رواه الحاكم والبيهقى عن أبى هريرة - وحديث: "استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان (أسيرات) عندكم لستم تملكون منهن غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً" - رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة -

وحدیث: "رفقًا بالقواریر" - رواه البخاری - وحديث: "عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن فإن غضب الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم" وحديث: أطعموهن مما تأكلون واكسوهن مما تكسون ولا تضربوهن ولا تقبحوهن" - رواه أبو داود عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده - وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما أنه وجدت امرأة مقتولة في بعض المغازي فبلغ رسول الله ﷺ قتلها فنهى عن قتل النساء والصبيان.

وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ وهو في مرض موته أن قال: "الله في النساء فإنهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله واستوصوا بهن خيراً".

معنى أحاديث الرفق بالنساء

قال الكمال أحسن الله تعالى إليه: وبعض الفسقة يحفظون من الأحاديث الشريفة أحاديث يؤولونها حسب أهوائهم، ويجعلونها حجة لهم ووسيلة إلى اقتناص أوابد النساء كحديث "حب إلى من دناكم الطيب والنساء" مقتصرين على هذين الشيئين من غير حفظ بقية الحديث وهي "وجعلت قرّة عيني في الصلاة" وحديث "كلما ازداد المرء إيماناً ازداد حباً في النساء" وحديث "ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم" وحديث "إنما النساء شقائق الرجال" وحديث "رفقًا بالقوارير" ويتوسلون بها إلى إغواء النساء وإفسادهن تحت ستار الدين، والاستشهاد بقول رسول رب العالمين، وليس مورد الأحاديث المذكورة هو كما يؤلونه ويريدونه كلا وإنما حب النساء وإكرامهن والرفق بهن إنما يكون بتعليمهن أمور دينهن وحفظهن وصيانتهم من كل ما يلوث عفتهم ويدنس شرفهن لا بترك حبيلهن على

غاريهن وابتذالهن وهتك سترهن بإطلاق السراح لهن يغشين مسارح الله و
وبؤر الفسق والفجور، ويحالطن الرجال ويخاصرنهن ويرقصن معهم ويشرين
الخمور، وهل يقال لمن عنده درة ثمينة ألقاها فى المزابل إنه احترمها وصانها أم
إنه هو ابتذالها وامتهنها؟ فاعلم ذلك ولا تصرف قول الرسول المعصوم ﷺ
الذى جاء بالهدى والنور إلى ما يوافق الهوى والشهوة. وعلى المرأة أن تعلم
وتفهم أن كل معاملة لها يوافق الشرع عليها فهى إكرام لها وصيانة لعرضها
وحفظ لشرفها سواء أكانت تلك المعاملة قاسية أو لينة، وأن كل معاملة لها لا
يوافق الشرع عليها فهى إهانة لها وانتهاك لحرمتها وابتذال لشرفها سواء
أوافقته أم لم توافقها، والنفس أمارة بالسوء ميالة إلى اللهو إلا من رحم الله
قال رسول الله ﷺ " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات " - رواه
الإمام أحمد بن حنبل ومسلم والترمذى عن أنس ومسلم عن أبى هريرة أيضاً
وأحمد عن ابن مسعود أيضاً

وأما ما ورد من مدحهن والهناء بهن من غير الآيات والأحاديث فكثير
أيضاً فى القديم والحديث قال قونفورشيوس وكبير البراهمة المتوفى قبل سيدنا
عيسى عليه السلام بنيف أربعة قرون: المرأة أكمل المخلوقات. وقال بعض
الحكماء: ما آتس الإنسان ولا عمر المكان ولا سلى الأحزان ولا أعان على
نوب الزمان مثل البيض العوان (النساء) وقال آخر: المرأة مرآة الأمم. وقال
آخر: المرأة ريحانة لا قهرمانه وقال آخر: فاقت المرأة الرجل بحسن خلقها
ولطف خلقها فإذا فاقت فى العلم والفضيلة لم يبق للرجل عليها سوى قوة
ضئيلة. وقال بعض الشعراء:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين

وقال الكمال أحسن الله تعالى إليه: الدنيا دار سكنى بالإجارة رجالها
قاعة الزيادة والنساء فيها ضياء، وليس لأحد عن النور استغناء:

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها وعيش بنيتها في لقاء بناتها

وقد أكثر الشعراء في القديم والحديث من ذكر النساء والتشبيب بهن فلا تخلو قصيدة من أن تفتتح بذكرهن، والناس يتلقون ذلك بالقبول والاستحسان حتى إن كعب بن زهير مدح رسول الله ﷺ بقصيدته المشهورة ببانت سعاد وتغزل فيها بذكر سعاد وسمعتها رسول الله ﷺ منه فلم ينكر عليه شيئاً منها. وهذا من مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضبض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالرياح معلول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومن احترام النساء وتكرimenهن أن أبا الفضل ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ وغيرهما وهما من الأدب في المكانة العليا كانوا يكونون عن البنت الكبيرة بالكريمة، وعن البنت الصغيرة بالريحانة، وعن الإثم بالحرّة، وعن الأخت بالشقيقة وعن الزوجة بكبيرة البيت، أو يمن وراء الستار وعن الزفاف بتألف الشمل، واتصال الحبل. والترك يعبرون عن الزوجة بالرفيقة، والعرب يكونون عنها بالحيلة والظعينة والقرينة والقعيدة، وقعيدة البيت والربض والحنة والطة والكنة - بفتح الطاء والكاف - والعرض والسكن واللباس والإزار وقد جاء القرآن الكريم بوصف الزوجين باللباس فقال تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وأهل منصر يخاطبون الزوجة ويعبرون عنها بالست فيقول الزوج لزوجته: يا ستي ويخبر عنها فيقول ستي قالت وستى فعلت. قال الشاعر الأديب بهاء الدين زهير المصري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ:

بروحى من أسميها بستي فتتظر لى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحنا وكيف وإننى لزهير وقتى
ولكن عادة ملكت جهاتى فلا لحن إذا ما قلت ستى
وكل هذه الكنايات من حرص الرجال على أن لا تذكر النساء بالأفواه،
وتبتذل بالأسماع، فضلا عن أن يطلع على مسمياتهن، أو يتعرض لهن
بذاتهن. وإنما يضمن بالضمنين وينافس بالثمين.

باب

فى مدح النساء من حيث أنهن إناث ولله حياة من أنفس الأناث

ليس فى هذا الباب أفضل ولا أصدق من قول الرسول الأعظم ﷺ

"البنات هن المشفقات المجهزات المباركات، من كانت له ابنة واحدة جعلها الله له سترًا من النار، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله الجنة بهما، ومن كانت عنده ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة" وقوله: "من من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة" - رواه ابن ماجه والحاكم وابن حبان عن ابن عباس - وقوله: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه أى معًا" - رواه مسلم عن أنس - وفى حديث آخر "إذا ولدت الجارية بعث الله عز وجل إليها ملكًا ينفقها حتى يخرجها من بيتها ضعيفة، القيم عليها معان إلى يوم القيامة، وإذا ولد الغلام بعث الله إليه ملكًا من السماء فقبل بين عينيه وقال الله يقرؤك السلام" وفى حديث آخر "من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة" - رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى - "وفى حديث آخر "من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار" - رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة -

ودخل عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٣ على معاوية بن أبى سفيان المتوفى سنة ٦٠ رضى الله تعالى عنهم وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف، فقال له أمطها عنك قال معاوية ولم؟ قال عمرو لأنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الشحناء ويثرن البغضاء، قال معاوية لا تقل ذلك يا عمرو فوالله ما مرض

المرضى ولا ندب المتوتى ولا أعان على الزمان ولا أذهب جيش الأحران
 مثلهن، وإنك لو اجد خلا قد نفعه بنو أخته، وأبا قد رفعه نسل بنته، فقال
 عمرو ودخلت عليك يا معاوية وما على الأرض شيء أبغض إلى منهن وإنى
 لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلى منهن. وقال معن بن أوس
 المتوفى سنة ٦٣:

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
 وفيهن والأيام يفتكن بالفتى خوادم لا يمللنه ونوائح
 وقال عمران بن حطان الدوسى المتوفى سنة ٨٩:

لقد زاد الحياة إلى حبا بناتى إنهن من الضعاف
 مخافة أن يذقن البؤس بعدى وأن يشربن رنقا بعد صافى
 ولولا هن قد سومت مهري وفى الرحمن للضعفاء كافى
 وقال حطان بن معلى الأسدى:

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
 لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
 وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
 إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عيني من الغمض

وقال الكمال (مؤلف الكتاب) أحسن الله تعالى إليه فى ابنته أمة الرحيم
 وهى بنته الوحيدة العجبة وقتل أى اليتيمة من الأم وقد ولدت سنة ١٣٤٠ هـ
 - ١٩٢١ م:

يارب بتى من الضعاف والحال ليس عليك خافى

يارب حطها وقم عليها بالصون والستر والعفاف
وقال فيها أيضاً وقد ترعرعت:

يارب بنتى فى حماك وديعة من كل شىء فى الحياة يشينها
يارب أنبتتها نباتاً طيباً بجمال حال فى الأنام يزينها
وأتح لها بعلا إذا أبقيتها بعفاه وتقاه رب يصونها

ثم جاءت هبة الكريم درية من زوجة أخرى سنة ١٣٥٢ هـ ابتلاها الله
بيتمها من أمها وهى بنت سبعة أشهر جبر الله يتمها ورحم أمها. وقال رجل
من العرب لامراته وقد ولدت له بنتاً: ولدتها ثمان ولا تمون، وتضان ولا
تصون، وتردريها العيون فقالت بل ولدتها تكثر مال أهلها، وتعمر بيت
بعلمها، وتسره بدلها * وغاضت رجل من العرب زوجته واعتزلها لأنها ولدت
له بنتاً فقالت:

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
يغضب أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وباختيار الله قد رضينا

فأعجبه قولها واتعظ به فرضى عنها ورجع إليها. وعيرت أعرابية بنت
ولدتها فقالت:

ماذا على إن ولدت جارية تمشط رأسى وتكون فساليه
خير من ابن عاره علانيه يجرف فى كل أوان داهيه
وقالت امرأة أخرى من العرب بهذا الخصوص:

وما على أن تكون جارية تحفظ بيتى وتضىء ناريه

وترفع الساقط من خماريه حتى إذا تمت لها ثمانية
أو تسعة من السنين الوافية زوجها مروان أو معاوية

أزواج صدق ومهور غالية

وقال بعض الشعراء:

أحب البنات وحسب البنا ت فرض على كل نفس كريمه
فإن شعسا من أجل ابتيـه له أخدمه الله موسى كليمه
يشير إلى قوله تعالى (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على
أن تأجرين ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) الآية. وليس سيدنا
موسى عليه السلام باول من أجر نفسه للخدمة فى سبيل التزوج بدلا من
المهر، بل سيدنا يعقوب عليه السلام قبله تزوج ببنت خاله واسمها راحيل
بخدمته لخاله سبع سنوات كما ذكره ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٢٦ فى
كتابه المعارف.

وقال الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه بحر البلاغة: الدنيا مؤنثة
والناس يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية،
وفيهما كثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم
الثواقب، والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة
ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا تحرك الأنام. والجنة مؤنثة وبها وعد
المتقون، وفيها ينعم المرسلون أهـ وكتب الصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥
مهتأ بنت: أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد
طهار، وتمثل بقول المتبنى المتوفى سنة ٣٥٤

ولو كان النساء كمثلهن لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم عيباً ولا التذكير فخراً للهلال
وكتب أبو الفرج البيهقي عبد الله بن نصر المتوفى سنة ٣٩٨ هـ مهنئاً بأنثى:
اتصل بى خير المولودة المسعودة كرم الله غرتها وأنبثها نباتاً حسناً، وما كان من
تغيرك عند اتصال الخبر، وإنكارك ما اختاره الله تعالى لك فى سابق القدر،
وقد علمت أنهن أقرب من القلوب، وأن الله عز وجل بدأ بهن فى الترتيب،
فقال عز من قائل (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) وما سماء الله
تعالى هبة فهو فبالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى أه والعرب يقولون لمن
تولد له الجارية: هنيئاً لك بالنافجة (النافجة وعاء المسك).

باب

فى مدح المرأة من حيث أنها زوجة عاقلة، وربة بيت فاضلة

فى الحديث الشريف: "خير النساء التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره" - رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن أبى هريرة - وفى حديث آخر "خير نسائكم العفيفة الغلّمة، عفيفة فى فرجها، غلّمة على زوجها - رواه الديلمى عن أنس - وفى حديث آخر "من رزق حسن صورة وحسن خلق وزوجة صالحة وسخاء فقد أعطى حظه من خيرى الدنيا والآخرة" وفى حديث آخر "أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة، لسان ذاكِر وقلب شاكر وبدن على البلاء صابر وزوجة صالحة لا تبغى خوفاً فى نفسها ولا ماله صالحة تعين أحدكم على دينه" - رواه الطبرانى والبيهقى عن عبد الله بن عباس - وفى حديث آخر "أربع خصال من سعادة المرء، أن تكون زوجته صالحة وأولاده أبرار وخلطاؤه صالحين ومعيشتهم فى بلده" - رواه ابن عساکر والديلمى عن عبد الله بن الحاکم عن أبيه عن جده - وفى حديث آخر "أربع من السعادة، المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنىء" وفى حديث آخر "خير ما يكتز الرجل المرأة الصالحة إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته" وفى حديث آخر "الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" - رواه الإمام أحمد بن حنبل ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمر بن العاص - وفى حديث آخر "من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى" - رواه الحاكم عن أنس - وفى حديث آخر "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها

نصحته فى نفسها وماله" - رواه ابن ماجه عن أبى أمامة الباهلى - وفى حديث آخر "إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلى من أى أبواب الجنة شئت" - رواه ابن حبان عن أبى هريرة -

وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تبنى بيتها والمرأة السفیهة تهدمه. وقال حكيم: الجمال كاذب والحسن مخلف وإنما تستحق المدح المرأة الموافقة. وقال آخر: الهناء كله موكل بالخليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء. وقال الأصمعى المتوفى سنة ٢١٣: حدثنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير قال ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله تعالى بمثل منكح صدق، ولا وضع نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء. وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ رضى الله تعالى عنه: المرأة الصالحة تشبه الوالدة والأخت والصديق، والمرأة السوء تشبه الرابة. (زوجة أبى الولد) والعدو والسارق. وقال الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ فى إحدى مقاماته: القرينة الصالحة ترب بيتك، وتلبى صوتك، وتغض طرفك، وتطيب عرفك، وبها ترى قرة عينك، وريحانة أنفك، وفرحة قلبك، وخلد ذكرك. وقال الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى سنة ٩٥ لا يوب بن القرية البليغ المتوفى سنة ٨٤ ما تقول فى التزويج؟ قال: وجدت أسعد الناس فى الدنيا وأقربهم عيناً وأطيبهم عيشاً وأبقاهم سروراً وأرخاهم بالاً وأثبتهم شباباً من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة وإن قتر عليها وجدها قناعة وإن غاب عنها كانت له حافظة وقد ستر حلمها جهلها وزين دينها عقلها فزوجها ناعم وجارها سالم وعلوكها آمن وصبيها طاهر فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنىها وكاللؤلؤة التى لم تثقب

والمسكة التى لم تفتق قوامه صوامه ضاحكه بسامة إن أيسرت شكرت وإن أعسرت صبرت فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجره فى الأرض جرّاً فبعلها مشغول، وجارها متبول، وصبيها مرذول، وقطها مهذول، وفى لسان العرب لابن منظور الأفريقى المتوفى سنة ٧١١ خیر النساء الخفرة فى قومها المتبذلة لزوجها. يعنى التى لا تتصنع له فى قول ولا عمل. وقال مسلمة بن عبد الله المرأة الصالحة خير للمرء من عينيه ويديه. وقال بعض السلف: المرأة الصالحة إحدى الحسينين. وقال حكيم: سعادة الأسرة تتوقف على المرأة أكثر من توقفها على الرجل. وقال آخر: المرأة الجميلة تملك القلوب والمرأة الفاضلة تسترق العقول وقال بعض العارفين: الزوجة قوت النفس، وسبب طهارة القلوب. وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقبل امرأته فى رمضان فقال "لا بأس ريحانة يشمها" وقال الشاعر:

سعادة المرء فى خمس لقد جمعت صلاح جيرانه والبر فى ولده
وزوجة حسنت أخلاقها وكذا خل وفى ورزق المرء فى بلده

وقال بعض العارفين: المرأة الصالحة أقر متاع الدنيا لعين المرء ولا يسكن لشيء كسكونه لزوجته. وقد صدق فقد قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) وقال عز وجل (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) وللزوج من زوجته منزلة رفيعة لا سيما إذا كان موافقاً لها فى هواها، عاملاً بما فى رضاها، مجارياً لها على ما تريد. وفى الحديث الشريف "إن للزوج من المرأة لشبعة ما هى لشيء" رواه الحاكم وابن ماجه عن محمد بن عبد الله ابن جحش - والمراد بما تقدم من ذكر الزوجة الصالحة ذات الدين والفكرة الطاهرة والشعور الشريف والخلق

اللطيف والأخلاق الكريمة والصبر الجميل والعفة الحقيقية والنظافة الدائمة فى نفسها وملبسها ومسكنها. وأولادها المواتية لزوجها الموافقة له المعينة فى المنشط والمنكره لما يريد. المؤدية ما يجب له عليها بعد تأدية واجبها لربها من طهارة وصلاة وصيام، القائمة بلازم بيتها من عمل بالذات أو نظارة عليه إذا كان لها خدم يقمن به، المحبة لزوجها محبة لا تبغى معها بدلا منه مهما يكن زوجها وضيعاً وغيره رفيعاً، فهذه هى المرأة الصالحة التى تكون سبب السعادة لزوجها وأولادها ولا يشترط فيها أن تكون غنية أو شريفة فى قومها بل مجرد دينها وأدبها كافيان لها يغنيانها عن غيرهما. وكم أعلم من امرأة فقيرة بل خادمة تزوجت بفقر فكانت سبباً فى انعاشه وإنقاذه من مخالب فقره حتى وصل إلى درجة الوجوه والأعيان، وصار منزله لوفود الرجال من جميع الطبقات وأصبحت زوجته تلك الخادمة الفقيرة ستاً كبيرة أو سيدة جليلة وليس هذا بالأساطير ولا الخرافات ولا الأقاصيص، بل هو شئ حق شاهدته بعينى لم أسمع به بأذننى. وبالعكس منها كم أعلم من امرأة غنية وزجها على شاكلتها ما زالت تعمل أعمال البذخ والسفه والسرف حتى أهلكت زوجها بسوء إدارتها مالا وحالا فأمسى فى حالة يرثى لها، وكانت عاقبة أمرهما خسرأ وهلاكاً نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن سوء الإدارة المؤدية للخسارة. والمرأة عنوان كل خير وشره، ومجمع بحرى النفع والضرر، إذا صلحت صلح كل ما تتعلق به ويتعلق بها، وغدا فسدت فسد الجميع والله الحافظ الواقى.

باب

فى مدح المرأة من حيث الحمل والولادة، وما تجرى فيه بذلك العادة

لما كان القصد من الزواج حصول النسل وبقاء أفراد العالم إلى آخر الوقت المقدر له، ولا يحصل ذلك إلا بكلفة ومشقة على النساء من الحمل والوحم والطلق والولادة والنفاس والإرضاع وتربية الولد وغطامه، تفضل الله تعالى على المرأة التى تبلى بحمل هذه المشاق والشدائد بالفضل العظيم من نحو إيجاب الشكر على الولد لأمه أولاً ثم لأبيه ثانياً كما قال الله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وتقديم الأم على الأب بالبر والشكر مفهوم من الأحاديث الشريفة كحديث "أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبك ثم الأقرب فالأقرب" - رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن معاوية بن حيدة وابن ماجه عن أبى هريرة - ومن نحو ما ورد فى الأحاديث الشريفة مما أعده الله للمحاملات والوالدات كحديث "المرأة فى حملها إلى وضعها إلى فصالها كالمربط فى سبيل الله، فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شديد" - رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر - وحديث "المرأة إذا حملت كان لها أجر الصائم القائم المحبب المجاهد فى سبيل الله، فإذا ضربها الطلق فلا تدرى الخلائق ما لها من الأجر، فإذا أرضعت كان لها بكل مصة أو رضعة أجر نفس تحييها، فإذا فطمت ضرب الملك على منكبها وقال استأنفى العمل" وحديث "الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله، المقتول فى سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذى يموت تحت الهدم شهيد،

والمرأة تموت بجمع^(١) شهيد" - رواه الإمام مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن جابر بن عبد الله - وحديث "أما ترضى إحدان أنها إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله، فإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين، فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة ولم يمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة وبكل مصة حسنة، فإن أسهرها ليلة كان لها مثل أجر سبعين رقبة تعتقهم في سبيل الله" - رواه الطبراني وابن عساكر والحسن بن سفيان عن سلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

والحمل والولادة أمران صعبان، والتهلكة فيهما ملحوظة قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: رسول الموت الولادة. وقد صدق فيما قال فكم من حامل ماتت وهى تلد أو فى أثناء نفاسها، ولذلك كان فضل الله تعالى على النساء عظيماً، لو عرفن ذلك الفضل فقدرنه حق قدرته وشكره حق شكره. وينبغى أن تطعم النفساء التمر فى أثناء نفاسها، فإن من كان طعامها فى نفاسها التمر كان ولدها حليماً (وفى هذا الحديث).

فوائد لتسهيل الولادة

العمدة فى هذا الباب على ما عند القابلة الطيبة من العلم والمعرفة بحسب ما تعلمته وقد ترقى فن الطب ترقياً زائداً سهل على كل والد ولادتها، فيجدر بالحامل أن تحضر القابلة الطيبة لا أن تسترسل فى اتباع ما هو مألوف عندها وعند أهلها من أنها لا تبغى بالقابلة فلانة العجوز بدلا حيث أنها ولدتها وولدت من ولدتهم من أهلها فأن كونها ولدتهم ليس يقتضى التمسك بها ما دام فى الإمكان تسهيل أمر الوالدة باستخدام القابلات

(١) جمع بضم الجيم وسكون الميم أى تموت وهى حامل.

الطبيبات. وكم من تهلكة وقعت فيها الحامل بسبب تمسكها بقديمات الصنعة من غير علم ولا معرفة فقاست من الأهوال، وصرفت من الأموال ما كانت فى غنى عنه، ومع هذا فلا مانع من استعمال ما جاء فى كتب الطب المادى والروحانى من الفوائد المسهلة للولادة لا سيما فى الأماكن التى لا يوجد فيها قابلات طبيبات. وقد ذكرت فى كتابى (الفوائد الكمالية فى المنافع الدينية والدينية) قسمًا منه وهذا هو: ذكر الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ فى شرح المقامة العمانية من المقامات الحريرية عن ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ بسند متصل بسيدنا عبد الله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ رضى الله تعالى عنهما أنه قال: مر عيسى ابن مريم عليهما السلام على بقر قد اعترض ولدها فى بطنها فقالت يا كلمة الله ادع الله أن يخلصنى، فقال: ياخالق النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها. فألقت ما فى بطنها. فإذا تعسرت على امرأة ولادتها يكتب ذلك فى إناء ويمحى بماء وتسقاه وعن ابن عباس أيضاً أنه يكتب لمتعسرة الولادة فى جام (قدح) وتسقاه؛ بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وأخرج البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ فى كتاب الدعوات عن ابن عباس موقوفاً فى المرأة التى تعسرت عليها ولادتها أنه يكتب فى قرطاس ثم يمحى وتسقى، بسم الله الذى لا إله إلا هو الحليم الحكيم، سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلى عشية أو ضحاها، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار فهل يهلك إلى القوم الفاسقون) وعنه أيضاً أن من عسر عليها النفاس أو الولادة يكتب لها فى إناء جديد ويمحى ويمسح به بطنها والموضع الطاهر من فرجها (إذا

السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، لقد كان في قصصهم عبرة لألى الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ذكره الجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فى كتابه الرحمة فى الطب والحكمة وقال إنه صحيح مجرب وذكر فى الاقان برواية ابن السنى المتوفى سنة ٣٦٢ عن فاطمة رضى الله تعالى عنهما أنها لما دنت ولادتها أمر رسول الله ﷺ زوجته أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتيها فتقرأ عندها آية لكرسى وقوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدون أفلا تذكرون) وأن تعوذها بالمعوذتين* وفى كتاب نزهة المجالس للصفرى المتوفى آخر القرن التاسع أنه تسقى معوقة الولادة أربعة مثاقيل من قشر خيار الشنبر اليابس، أو درهمين من الزعفران، فإنها تلد سريعاً وأنه ينبغى لمن قربت ولادتها أن تستحم كل يوم. وفى كتاب تسهيل المنافع إذا عقدت مرجانة تخيط فى فخذ المرأة اليسرى يخرج الولد سريعاً، وإن شرب ثلاثة دراهم من القرفة يسهل الولادة فى الحال، وإن التبخر بشعر نفسها يسهل خروج الولد* وفى شرح المقامات الحريية للشريشى أن الزبد البحرى (وهو حجر رخو رقيق شديد البياض) إذا علق على المرأة التى أخذها الطلق سهل ولادتها. وشرب السعتر المنقوع بالماء يوماً وليلة وشم الزعفران والتبخر بحافر حمار أو بذبله أى روثه وشرب درهمين من زهر الياسمين إلا بيض أو أربعة مثاقيل من قشر خيار والشنبر اليابس، أو شرب درهمين من الزعفران كل ذلك يسهل الولادة.

فصل فى الحبل والعقر والعقم والإجهاض والحيض

القصد من الزواج التناسل وتكاثر أفراد لىبقى إلى آخر اليوم المعين لبقائه، فإذا أراد الله تعالى إنهاء العالم وإفناء أوحى إلى الأرض أن لا تنبت، وإلى الأرحام أن لا تحمل. ف يأخذ الموجود فى النقصان إلى أن يعتره الفناء، وما دامت الأرض تنبت والأرحام تحمل فإن وقعت نهاية العالم لم يحن بعد ولم يجىء. ومن فضل الله تعالى أن جعل النساء يحبلن ويلدن لبقاء العالم إلى نهاية وقته المراد وأقل القليل منهن التى لا تحبل إما لمانع طبيعى أو عرضى، ولكن ليس فى الإمكان الحكم على امرأة ما قبل النكاح والدخول بها أنها تحمل وتلد أولاً، وإنما يستأنس لذلك بالقياس على ذوات قرابتها فى الغالب. والحبل معلوم لا يحتاج إلى تعريف، والصفة منه حائلة وحبلية وحبلانة، ولم ترد هذه المادة فى القرآن ولا فى الحديث على ما أعلم وإنما الذى ورد الحمل وما يشق منه. والعقر أن لا يكون فى المرأة قابلية الحمل والولادة ولا يعرف ذلك إلا بعد دخولها فى سن الإياس وهو سن انقطاع حيضها، والصفة منه عاقر قال الله تعالى (ولو كانت امرأتى عاقراً) والعقم موت كل من الزوجين بلا ولد سواء أكان لهما ولد ومات فى حياتهما أو لم يكن لهما أصلاً، والصفة منه عقيم. والإجهاض تعمد إسقاط الجنين لسبب ما وهو حرام ومثابة قتل النفس لا سيما إذا تخلق ودبت فيه الروح، وجنابة تعاقب المحاكم عليها فاعلته، ولا يجوز بحال من الأحوال ولو كان الجنين من سفاح. وإثمه على أبويه ليس على الولد منه شىء، والمعاونة على إسقاط الجنين والدلالة على كيفية الإسقاط فى الإثم والجرم كالإجهاض. وأما سقوط الجنين من غير تعمد إسقاطه فلا إثم فيه لأنه من علة فى الرحم مانعة من بقاء الجنين ونموه فيه، ويجب على المبتلاه بسقوط جنينها التداوى. والحيض هو دم

يخرج من رحم امرأة بالغة سليمة من الأعذار فى أوقات معينة، وتحرم معه الصلاة والصيام والطواف وقراءة القرآن ودخول المساجد وقربان الزوج ما تحت إزار زوجته حتى تطهر. ومدة الحيض ومدة الطهر معروفتان عند كل امرأة بحسب حالها، ولا مانع من أن ينام الزوج مع زوجته فى فراش واحد وهى حائض ما دام يملك شهوته، وإن خاف غلبة شهوته عليه فعليه أن ينام منعزلاً عنها حتى تطهر. ومن الغريب فى حالة الحائض ما ذكره ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» أن المرأة - الطامث أى الحائض - تدنو من اللبن لتسوطه - أى تخلطه - وهى منظفة الكف والثوب فيفسد اللبن! وقد تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس فيه من غير أن تمسها أهـ.

واليهود يأنفون من الحائض ويجتنبونها كل الاجتناب فى أثناء حيضها فلا يجالسونها ولا يضاجعونها ولا يؤاكلونها ولا تطهر عندهم إلا باغتسالها بالماء البارد، ولو صادف حيضها أيام البرد القارص، وليس فى الإسلام شئ من ذلك إلا اعتزال ملامستها فيما دون الإزار حتى تطهر، ويكفى فى الشرع الإسلامى انقطاع حيضها لقربها وإن لم تغتسل ما جعل الله عليكم فى الدين من حرج).

فوائد للحبل وحفظ من السقوط

وهذه بعض فوائد تعين على الحبل وتحفظ الجنين من السقوط نقلاً عن كتابى (الفوائد الكمالية فى المنافع الدينية والدنيوية) قال ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ فى كتابه العقد الفريد: كل امرأة أو دابة تبطئ على الحبل؛ إذا واقعها الفحل أو الرجل فى الأيام التى يجرى فيها الماء فى العود فإنها تحبل فإذا شاء الله تعالى أهـ وفى كتب الطب والخواص أن التحمل بالأنفحة أيا كانت

بعد الطهر من الحيض، أو شرب المرأة لبن فرس وهى لا تعلم ثم وطؤها عقبه، وأكل الرجل خصية الأوز ثم وطؤها عقبه وتحمل المرأة بالخزامى بعد الطهر من الحيض ثلاثة أيام متوالية، وشربها مغلى القرنفل ثلاثة أيام متوالية كل يوم درهمين بعد الطهر، كل ذلك يعين على الحبل إذا لم يكن فى أحد الزوجين مانع يمنع منه. وشرب مغلى الكمون يقى الجنين من السقوط. وفى الطب الحديث وسائل كثيرة للحبل ووقاية الجنين فعلى من هو مبتلى بشيء من ذلك أن يراجع الأطباء المختصين بذلك ويعمل بما يقولون.